

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الحاج لخضر - باتنة -

شعبة التاريخ

قسم العلوم الإنسانية

المحاضرة الأولى:

مدخل إلى دراسة تاريخ الأفكار

السنة الثانية

مقياس : تاريخ الأفكار

الأستاذ: بعيطيش عبد الحميد

السنة الجامعية: 2011 - 2012م

تمهيد:

شهدت العلوم الاجتماعية انفصال مباحث من بعض العلوم ليصبح كل منها علما مستقلا في موضوعه وخصوصية ما في منهجه. وعبر مساره ظل علم التاريخ محتفظا بثبات نسبي من حيث موضوعه ربما استثناء ظهور "فلسفة التاريخ" التي شكلت جسرا بين الفلسفة والتاريخ التي ستشكل ميلاد علم جديد هو تاريخ الأفكار .

نتوقف عند هذه العبارات و نمهد بإلقاء نظرة على تاريخ الأفكار وميدانه.

1 - عن مفهوم تاريخ الأفكار :

إن التاريخ كما نفهمه علم يعنى بتسجيل ودراسة جملة الأحداث والأحوال التي يمر بها كائن ما، ويصدق هذا على الفرد والمجتمع والظواهر الطبيعية ونحوها، كما يمكن أن يصدق أيضا، وفي الاستعمال الواسع على الأفكار ذاتها. فمعالم التاريخ لا تتألف من الأحداث الكبرى فقط، بل هي تتألف أيضا من أفكار عظيمة أسهمت في التمهيد لتلك الأحداث أو صاحبها أو تمخضت وتبلورت عنها، فأثرت تأثيرا متفاوتا في معاصريها، وشكلت منعطفات تاريخية سواء في زمانها أو في فترات لاحقة. ومن هنا تبدو أهمية كتابة تاريخ الأفكار.

فالمقصود بالأفكار في هذا السياق مجمل الآراء والنظريات والمفاهيم والتصورات العامة المجردة التي يكونها الفكر البشري في مجالات مختلفة قصد التعبير عن ماهية واقعة من الوقائع، أو ظاهرة من الظواهر أو معنى من المعاني، وإبراز الكيفيات التي تجعل أفكارا ومفاهيم تبقى وتستمر، مقابل إبراز الصور والخلفيات التي تقف وراء اضمحلال أفكار ومفاهيم أخرى بصورة سريعة دون مساهمة كبيرة في بناء الحضارة، هذا فضلا عن طبيعة نظرة هذا العلم للأفكار وهي نظرة تتجاوز اعتبار الفكر نتاجا للعقل المجرد إلى الوقوف عند كل فكرة وعلاقتها بلحظتها التاريخية وخلفياتها الاجتماعية المختلفة.

وتاريخ الأفكار بهذه الدلالة يعنى بدراسة نشأة الأفكار وظروفها ومضامينها وتطورها وصراع المدارس والتيارات الفكرية، في ارتباط مع التطور العام للتاريخ وللمعرفة العلمية، وذلك بهدف التحليل والفهم والنقد بدون شك، ولكن أيضا بحافز من اهتمامات الحاضر وإلحاحاته.

وعندما نستشير القواميس والموسوعات المختصة حول مصطلح "تاريخ الأفكار" نجدها تؤكد على أن مضمونه واسع وعام: فهو يدل على مجموعة من الأبحاث والدراسات التاريخية تكاد تشمل جميع ما هو إنتاج فكري وفي ميادين مختلفة، أي جميع أنواع الأفكار سواء كانت فردية أم جماعية، فلسفية منظمة أم عامية شائعة، مبتكرة ومبتدعة أم مكتسبة. ولذلك كانت حدود هذا الفرع المعرفي التاريخي غير واضحة، وتتداخل وتتشابك بالضرورة مع حدود معارف أخرى كثيرة.

2- تاريخ الأفكار كعلم

ساعدت المدارس الفكرية التي ظهرت وانتشرت منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر عند المدرسة الماركسية، إلى التطرق والخوض في واقع العلم وتبلوره، وعند التطور الذي حصل في دراسته خلال النصف الأخير من القرن العشرين بعد ازدهار العلوم اللسانية والسيميولوجية¹ وبخاصة مع المدرسة البنيوية²، الأمر الذي يدل على الشمولية والاستقصاء ويرشح هذه الدراسة لأن تكون مرجعا مفيدا للطلاب والباحثين على السواء.

فقد ظهر مصطلح تاريخ الأفكار (History of ideas) في البداية وإلى جانب مصطلح "التاريخ الفكري" (Intellectual history)، كفرع معرفي جديد إلى التاريخ الحديث وإن كانت هويته ما تزال غير واضحة نظرا لتقلب موضوعه وعدم دقة حدوده، وكون مناهجه ذات أصول مختلفة المشارب؛ والظاهر أن هذين المصطلحين لم يستطيعا الحلول مكان المصطلحات التقليدية الدالة على نفس الموضوع والمتداولة مثلا في الثقافة الفرنسية في الفترة الحديثة كتاريخ الفلسفة وتاريخ الأدب، وتاريخ العلوم، ولا منافسة المصطلحات الجديدة البديلة التي كانت مدرسة الحوليات الفرنسية قد اقترحتها من خلال مؤلفات مؤسسها: مارك بلوخ (Marc Bloch) ولوسيان فيبر (Lucien Febvre) مثل تاريخ العقلية (Histoire des mentalités) والتاريخ الاجتماعي والثقافي.

وقد اختلفت الآراء حول الأصل الحديث لتاريخ الأفكار، فيذهب بعض المؤرخين إلى القول بأنه ظهر في عصر النهضة في أوروبا وبخاصة مع فرانسيس بيكون (1561 - 1626) الذي أوضح في

¹ - تُجمع عدة كتابات ومعاجم لغوية وسميائية على أن السيميائيات هي ذلك العلم الذي يُعنى بدراسة العلامات، وبهذا عرفها فرديناند دوسوسير وجورج مونان وكريستيان ميترز وتزفيتان تودوروف وجوليان غريماص وجون دوبوا ورولان بارث وآخرون. ويبدو أن تعريف مونان أوفى هذه التعريفات، إذ يحدد السيميولوجيا بأنها "العلم العام الذي يدرس كل أنساق العلامات (أو الرموز) التي بفضلها يتحقق التواصل بين الناس"

² - بمعنى دراسة النص كبنية في إطار علائقي لا يمكن فصل بعضها عن بعض، أي في إطار منظومة واحدة.

كتابه "تقدم المعرفة" خصائص هذا اللون من التاريخ، بينما ذهب آخرون إلى أنه يرد إلى عصر التنوير في القرن الثامن عشر مرتبطا بظهور المؤرخين المتفلسفين الذين حاولوا ربط التقدم بارتقاء العقل أمثال فولتير (1694 – 1778)،.

وقد جنحت أقسام المعرفة نحو التشتت فلم يتوافر لأي "علم" القدرة الكافية لأن يلم شمل بقية العلوم، فمنذ العصور الوسطى فقد اللاهوت قدرته على القيام بذلك وتنازلت الفلسفة عن جزء من مساحة "الميتافيزيقا" للعلوم الجديدة، بل انقسم العلم ذاته إلى علوم. وتوقف الفكر السياسي والتاريخي عن التحدث بلغة الكليات وأصبح أكثر تخصصا وأكثر عناية بالفردى والجزئى من عنايته بالقوانين العامة. من هنا كانت الحاجة ملحة لعلم تاريخ الأفكار ليواجه "الوضعية"¹ التي بلغت ذروتها آنذاك في العلوم الاجتماعية كلها.

ونتوقف قليلا عند مصطلح تاريخ العقلية (Histoire des mentalités) الذي عرف رواجاً ملحوظاً في الثقافة الفرنسية بصفة خاصة، لقد استعير هذا المصطلح في الثلاثينيات من حقل الدراسات الاجتماعية والنفسية الذي كان آنذاك مهيمناً، ونقل إلى ميدان علم التاريخ. وكانت الغاية من ذلك في المقام الأول هي نقد تاريخ الأفكار كما كان يدرس في كليات الآداب الفرنسية. لقد أخذت مدرسة الحوليات على هذا التاريخ كونه يسجن نفسه في مجادلات مجردة وخارج الزمان والمكان، ويقرأ الماضي ويؤوله من خلال منظورات متنافرة وعتيقة. كما تصدت للمسلمات التي يقوم عليها. ويمكن أن نجمل تلك المسلمات في ما يلي:

- تعتبر الأفكار إبداعاً وإنتاجاً شخصياً للعباقرة والمفكرين.
- تتحدد دلالات الأفكار فقط بالإحالة إلى نوايا المفكرين المعلنة والصريحة.

¹ - المذهب الوضعي: أول من استعمل هذا الاصطلاح العالم الاجتماعى الفرنسى اوكست كومت (1798 – 1857) في حقل الفلسفة حيث يرى أن الفكر البشرى لا يستطيع أن يكشف عن طبائع الأشياء، ولا عن أسبابها القسوى وغاياتها النهائية، وإن كان يستطيع أن يدرك ظواهرها، ويكشف عن علاقاتها وقوانينها. وقد مرّ هذا الفكر، خلال تطوره، بثلاث حالات، وهي الحالة اللاهوتية (Etat théologique) والحالة الميتافيزيقية (Etat métaphysique)، والحالة الوضعية (Etat positif)، وهذه الحالة الثالثة هي النهائية. قال (أوغوست كونت): "لما أدرك الفكر البشرى هذه الحالة الوضعية، وعرف أنه ليس في مقدوره الحصول على حقائق مطلقة، عدل عن البحث عن مبدأ العالم وغايته، وعن الكشف عن الأسباب الباطنية للأشياء، وانصرف، باستخدام الملاحظة والاستدلال معاً، على وجه حسن، إلى الكشف عن قوانين الظواهر، أي عن علاقتها الثابتة التي لا تتغير.

- يفسر التشابه والاتفاق الملاحظ بين أفكار مختلفة في حقبة معينة إما بالاستعارات والتأثيرات المتبادلة، وإما "بروح العصر" التي تطبع جميع أنواع السلوك والتفكير. وهكذا بدلا من هذا النمط التقليدي لتاريخ الأفكار، اقترحت مدرسة الحوليات من خلال مصطلح تاريخ العقلية (Histoire des mentalités) مشروعاً لتاريخ مغاير يحاول أن يدرس الأفكار والمؤلفات وأنواع السلوك في إطار الشروط الاجتماعية التي تظهر فيها والتي تجعلها ممكنة؛ ويفهم مجموع الظواهر الثقافية لحقبة من الحقبة كإحدى مكونات شبكة معقدة ومتحركة من الوقائع الاجتماعية.

ويعد عام 1882 حاسماً ليس بالنسبة لتاريخ الأفكار فحسب وإنما للعلوم الإنسانية بشكل عام ففيه شغل **فيلهلم دلتاي** (1833-1911) كرسي هيجل في جامعة برلين في وقت تسيدت فيه "الوضعية" وبلغت ذروة عنفوانها ونادى دعائها بأن الخلاص الوحيد لتأخر العلوم الإنسانية عن العلوم الطبيعية يكمن في تطبيق المنهج التجريبي عليها للوصول إلى قوانين كلية. أما دلتاي المؤسس الحقيقي لعلم تاريخ الأفكار في نظر بعض المفكرين فقد جعل للتاريخ الصدارة بين العلوم الفكرية وجعل العقل البشري الفيصل في مسائل التاريخ، فالإنسان عند دلتاي كائن تاريخي يفهم نفسه من خلال التجارب الموضوعية للحياة لا التأمل العقلي وماهيته وإرادته ليست أشياء محددة سلفاً، فهو يفهم نفسه بطريق غير مباشر عن طريق "تأويل" التعبيرات الثابتة التي تنتمي للماضي.

وفي القرن العشرين توطدت مكانة تاريخ الأفكار وازدادت شعبيته وبخاصة بعد نشر الأعمال الكاملة لدلتاي وترجمت في العشرينات، وساعد المناخ السياسي المشحون بين الحربين العالميتين وما ترافق معهما من صراع أفكار على تطوير تاريخ الأفكار واتساع نطاقه فاجتذب بعضاً من أفضل العقول في القرن العشرين، فمن المؤرخين أرنست كاسير وفردريش ماينكه الذي توسع في عرض نظرة دلتاي لتشمل الفكر السياسي وميشيل فوكو الذي انتقد تاريخ الأفكار التقليدي وقدم منهجاً جديداً للبحث أسماه "**التحليل الحفري**" وكذلك آرثر لوفجوي الذي بذل جهداً ضخماً لإدخال علم الأفكار إلى أمريكا. وشارك في إثراء هذا العلم عالم الاجتماع كارل مانهايم الذي انتزعه من المجردات وربط بينه وبين التاريخ الاجتماعي.

وقد صدر قاموس ضخيم لهذا العلم وتوجد الآن حلقات دراسية ومراجع علمية وبرامج في تاريخ الأفكار في العديد من الجامعات في أمريكا وأوروبا واليابان، ومن أبرز رواد هذا العلم في الغرب برنارد جروته وزوين فيديريكو شابود وبول هازارد ودانييل مورينييه وغيرهم.

ويمكن القول إجمالاً إن التحليل الذي يقوم به تاريخ الأفكار من هذا المنظور الجديد له بعدان: البعد الأول أفقي وزماني، وهو يسجل إنتاج فكرة ما في سجل التاريخ الخاص لجنس المعرفة الذي تنتمي إليه؛ أما البعد الثاني فهو عمودي ومتزامن يعرض الفكرة في علاقاتها مع الإنتاجات الثقافية الأخرى المعاصرة لها، ويضع الكل في سياق الحقل الاجتماعي العام لفترة معينة

3- خصائص تاريخ الأفكار

يتميز علم تاريخ الأفكار عن أنواع التاريخ الأخرى بأنه يركز على "العالم الباطني للفكر" لا على "العالم الخارجي للحياة العملية"، أما الأفكار التي تعد مدار اهتمام هذا العلم فهي الأفكار التي تحظى بالانتشار ويبدو أن مفتاح السر يكمن في لفظ "الانتشار" الذي قد يفهم بأكثر من معنى كالانتشار خارج نطاق علم ما أو الانتشار من خلال الجماعات البشرية. ومن ثم فهو العلم النموذجي للعلاقة بين النطاقات والمجالات المعرفية المختلفة، فهو يتتبع الأفكار في انتشارها وهجرتها، وحسب فوكو¹ فإنه: " يتتبع المبادلات التي تتم بين الميادين المعرفية وهجرة الأفكار بين بعضها البعض من خلال إبراز كيف تنتشر المعرفة وتكون مناسبة لولادة مفاهيم فلسفية وتفصح عن نفسها أحيانا ... كيف تهجر المشاكل والمفاهيم والأفكار المحورية الحقل الفلسفي الذي تشكلت فيه إلى خطابات علمية أو سياسية".

وهكذا يتناول تاريخ الأفكار موضوعاً بين الفلسفة والتاريخ الحضاري، ومن أبرز أهدافه الكشف عن فئة معينة من الأفكار التي قد تكون وراء كل الفكر الصوري أو تعد شرطاً له، فهذه الأفكار هي الافتراضات أو التصورات المسبقة التي يمتصها الناس كما يمتص الماء النبات بقوة الارتشاح من بيئاتهم العقلية التي غالباً ما لا يكونون على دراية كاملة بها أو نادراً ما يسلمون بها تسليمًا، أي أن تاريخ الأفكار "يتركز حول أفكار قد يكون من الأفضل تسميتها (إيمانات)"، لأن ثمة أفكار في تاريخ

¹ - ميشال فوكو (Michel Foucault) (1926 - 1984) مفكر فرنسي شهير عالمياً ويعتبر من آباء المدرسة التفكيكية، وهي اتجاه في العلوم الاجتماعية يدعو إلى الابتعاد عن النمطية في تحليل الظواهر الاجتماعية مدعياً أن ذلك يضيق إلى حد كبير آفاق المعرفة البشرية، ويسقط أوهام الناس على الظواهر. يستند في كتاباته إلى كل أنواع المصنفات، والتاريخ، وعلم الاجتماع، والعلوم السياسية، والفلسفة، ومجالات مختلفة للبحث العلمي.

الإنسانية لا ننظر إليها كأفكار وحسب بل نؤمن بها مثل: الحرية، العدالة، التقدم. . . إلخ، ويختلف تاريخ الأفكار عن تاريخ الحضارة في أن الأول ينصب على أفكار الحضارة بمعناها الأسمى متمثلة في الفلسفة والفنون والآداب والعلوم بل مستويات مختلفة من التقنية.

4- دور الأفكار في التاريخ

في أواخر القرن التاسع عشر حين احتدم الجدل بين المؤرخين الفرنسيين حول أسباب ثورتهم (1789) إثر صدور كتاب "الروح الثورية قبل الثورة (1715 – 1789)" لفليكسي روكان. وخلاصة ما طرحه الكتاب أن ثورة الشعب الفرنسي لم تحركها أفكار العدالة والمساواة ولا كتابات فولتير وروسو ومونتسكيو وغيرهم، بل حركتها مظالم فعلية صارخة: "لقد ثار الفرنسيون حين عض الجوع بطونهم وخوت أكياس نقودهم وألقوا مسؤولية ضائقهم على عاتق حكومتهم. فإذا شئنا أن نفهم حقا أسباب اندلاع الثورة ... علينا أن نرجع إلى سجلات الحياة اليومية والحياة الاقتصادية ... وبمعنى أكثر تخصيصا علينا أن نقصد سجلات (لشكاوى الرسمية)".

وظل الرد على هذا الكتاب غائبا حتى عام 1906 عندما أصدر ماريوس روستان كتابه: "الفلاسفة والمجتمع الفرنسي في القرن الثامن عشر" وفيه أكد أن أفكار الفلاسفة هي التي ميزت القلائل الفاشلة منذ 1715 عن الانتفاضة القومية 1789. ويلخص هذان الموقفان – إلى حد بعيد الخلاف الدائر داخل الفلسفة بين المثالية والمادية الذي بلغ ذروته في القرن التاسع عشر مع هيغل وماركس حول ما إذا كانت الأفكار هي العلة التي تدفع الناس للعمل أم الظروف المادية، ويرى الدكتور عصام عبد الله أن الخلاف حول أولوية أي من الأفكار أو المصالح في تحرك البشر هو في جوهره خلاف عقيم، فدون أي منهما لن يكون ثمة مجتمع بشري حي فعال بل لن يكون هناك تاريخ بشري. غير أن ظاهر الأمر يوحي بأن تاريخ الأفكار يقوم على افتراض مسبق مفاده: "أن العقل أو الروح هو القوة القسوى وراء كل تقدم في التاريخ"، أي أنه يميل إلى المثالية غير أننا إذا أمعنا النظر نجد أنه يقوم بالوساطة بين المثالي والمادي، والأفكار لا تدفع الناس للعمل إلا إذا أحدثت لديهم إيمان حي، بمعنى أن يكون إيمانا دافعا للفعل. وقد اتخذ مصطلح **La Partideelle** الذي بلوره جودلييه¹ أهمية كبيرة في حسم الصراع المزمع بين المثالية والمادية وفي الكشف عن الدور الذي يقوم به

¹ - مورييس غودلييه Maurice Godelier باحث فرنسي معروف على المستوى العالمي، عاش بين عامي 1967 و1988 عند قبيلة بارويا Baruya في غينيا الجديدة. وقد أنجز عدداً من البحوث الميدانية، ارتبطت معظم أعماله البحثية بالمسألة الاقتصادية، فقد نشر

تاريخ الأفكار بالفعل. فقد بيّن أن التناجات المادية البشرية يحتوي بالضرورة على بعد فكري روحي بالضرورة وأن الفكر بالذات يتحول إلى قوة مادية، وبالتالي لم يعد هناك مبرر لانشطار العالم الفلسفي إلى معسكرين: مادي ومثالي. وتكمن أهمية إسهام جودلييه في أن صاحبه من النقاد الماركسيين الجذريين وهو لا يتخلى بذلك عن ماركسيته بل يريد تطوير الجوانب الحية من فكر ماركس ويتخلى في الوقت نفسه عما تجاوزه العلم والزمن، ويدعو المؤلف إلى إعادة التفكير في مسألة الغلبة أو الهيمنة بغية تحرير البحث العلمي من القوالب الجاهزة.

5- البحث في تاريخ الأفكار

يقدم لنا تاريخ الأفكار خلاصة تفكير الآخرين وتجاربهم واستبصاراتهم وإجاباتهم عن الأسئلة المحورية عبر العصور، ورغم تفوقنا على السابقين في جملة مجالات معرفية فإننا نرى أنفسنا والعالم من منظورنا نحن لا بد أن يكون خاصا وجزئيا ومحدودا، ومن ثم فنحن في حاجة دائما لأن ندرس كيفية إدراك الآخرين. من ناحية أخرى فإننا نتكلم عادة عن العالم بصيغة المفرد كما لو كان هناك عالم واحد، بينما هناك في حقيقة الأمر قد تكون منسجمة وقد تكون متناقضة، فهناك: عالم الفيلسوف وعالم اللاهوتي وعالم السوسولوجي وعالم البيولوجي وعالم الفنان. . . وهكذا.

لهذا ثمة حاجة دائما إلى تركيب فكري يتجاوز هذه العوالم ويجمع بينها، فالعقل الإنساني مدفوعا بما يسمى تناقضات الوضع التاريخي والوضع الإنساني كان يرى هذا التركيب ضروريا وتجب صياغته في شكل ما، لأن هذه التناقضات تدعو - بوجودها نفسه أو بجدليتها - إلى الكشف عن عقلانية عامة تضبطها وتتجاوزها. ويحتل علم التاريخ الحد الفاصل بين التاريخ والفلسفة مشاركا في غايتيهما معا وهو: " أفضل وسيلة لدراسة التغير والنسبي والمشروط معا، بل إبراز ما يتغير وسط التغير ". وبمقدور هذا الفرع المعرفي أن يتبين كيف أن أفكارا معينة لم تنتشر فحسب بل ساهمت في بناء حضارات عظيمة بينما أفكار أخرى لم تُعمر طويلا.

ويسلم تاريخ الأفكار بوجود علاقة متكاملة بين الحقيقة والأصول التاريخية للفكر، فكل فكرة إنما تبرز في بيئة ما ورؤيتها في حالتها الأصلية شرط لفهمها فهما كاملا وبطبيعة الحال يساعد في فهم ماهيتها.

سنة 1966 في باريس كتابًا ضخماً حول هذه المسألة تحت عنوان العقلانية واللاعقلانية في الاقتصاد *Rationalité et irrationalité en économie*.

ويقع انتشار الأفكار كما حدده قاموس تاريخ الأفكار في فضاءات أو اتجاهات ثلاثة:

- الاتجاه الأفقي عبر التنظيمات المعرفية المختلفة في بيئة معينة وعصر محدد.
- الاتجاه الرأسي (الخطي التاريخي) عبر العصور المختلفة.
- أما الاتجاه الثالث فيتقاطع فيه الاتجاهان السابقان في مراكز إشكالية محددة تخص العصر أو البيئة الثقافية ويسمى "العمق".

ويقابل هذه الاتجاهات الثلاثة ثلاثة أنواع من الدراسات التطبيقية المتبعة في تاريخ الأفكار:

- الدراسات العرضية التي تحدد بزمان ومكان.
 - الدراسات الخطية التي تركز على مسار فكرة أو مفهوم عبر العصور.
 - وأخيراً الدراسات التي تجمع بين النوعين السالفين وترك بشكل رئيس على "العمق".
- ومن النماذج الكلاسيكية للنوع الأخير كتاب: "سلسلة الوجود الكبرى" لآرثر لوفجوي¹ (1936)، وفيه قام بتحليل البنية الداخلية لمكونات الأفكار أو ما أطلق عليه "الوحدات الكبرى للأفكار"، الاستمرارية والتدرج والاكتمال، وهي ليست وصفا للإطار التاريخي والثقافي العضوي للأفكار بل خلاصة تحليلية وبحثية في تاريخ الأفكار، وهو يقترحها كعوامل مساعدة لتمييز الأفكار المركبة والمحورية التي تقف وراء معظم الحركات الفكرية الأخرى. وقد أصبح نموذج لوفجوي أحد أهم أسس البحث في تاريخ الأفكار التقليدي، وحسب فوكو: "فإن النشأة والاتصال والكلية هي الأفكار المحورية الأساسية الكبرى لتاريخ الأفكار".

أما نيتشه² فقد وضع محددات للتاريخ باعتباره تناسل للتأويلات التي لا تحيل في نهاية المطاف إلى أي تأويل صحيح أو أصل أول، ولا إلى أية حقيقة عميقة، معتبرا السر الكامن وراء جميع التأويلات وخلف "الحقيقة" التي تزعم تلك التأويلات الإفصاح عنها هو إرادة القوة؛ وآخر واقعة يمكن الوصول إليها؛ وما يشكل "الماهية الصميمة" للوجود وللعالم وللحياة هو في نهاية المطاف: إرادة القوة، لقد

¹ - قام المؤرخ آرثر لوفجوي (Arthur O. Lovejoy) بصك مصطلح "تاريخ الأفكار" ولقن طرق دراستها في العقود الأولى من القرن العشرين. عمل لوفجوي كبروفيسور للتاريخ في جامعة جون هوبكنز منذ 1910 وحتى 1938، وهناك أشرف على اجتماعات (نادي تاريخ الأفكار) الذي قام بتأسيسه لعدة عقود.

² - فريدريك فيلهيلم نيتشه Friedrich Nietzsche ولد 1844 1900 - فيلسوف وشاعر ألماني، كان من أبرز الممهدين لعلم النفس، كتب نصوصاً وكتباً نقدية حول المبادئ الأخلاقية، والنفعية، والفلسفة المعاصرة، دعا إلى تبني قيم جديدة بعيداً عن الكانتية والهيغيلية والفكر الديني و يعد أول من درس الأخلاق دراسة تاريخية مفصلة.

كتب نيتشه: "هل تريدون اسما لهذا العالم...؟ وحلا لجميع أسرار ه وألغازه؟ إنه إرادة القوة، ولا شيء آخر غيرها".

ورغم هذا لا توجد حتى الآن طريقة معينة لتحليل البنية الداخلية الأفكار، فهناك اجتهادات متعددة قدمها أرنست كاسيرر وكارل مانهايم وفرانكلين ل. باومر وغيرهم. وباستثناء "حفريات المعرفة" لميشيل فوكو لا يوجد - فيما نعلم - كتاب منهجي آخر في تحليل البنية الداخلية للأفكار.

6- الأيديولوجيا وتاريخ الأفكار

"أيديولوجيا **Ideologie**" كلمة معربة وأصلها مركب من كلمتين يونانيتين: **Idea** وتعني الفكر، و**Logoc** وتعني العلم أو النظرية، فهي اشتقاق يعني "علم الأفكار". وأول من صك المصطلح المفكر الفرنسي دستوت دي تراسي (1754 - 1836) في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر في كتابيه: "مذكرة حول ملكة التفكير" (1796) و"تخطيط لعناصر الأيديولوجيا" (1801). وأراد بهذا المصطلح أن يشير إلى "العلم الذي يدرس الأفكار بمعناها العام، أي العلم الذي يقوم بالبحث في وقائع اللاشعور، فيعرض لتحديد خصائصها وقوانينها ونشأتها وعلاقتها بالعلاقات التي تمثلها" ويبدو أن كلمة أيديولوجيا ارتبطت في نشأتها بالنزوع الحسي أو المادي الذي ظهر في فرنسا خلال القرن الثامن عشر، فكانت الأيديولوجيا علم الأفكار وكان المنهج الأيديولوجي هو المنهج العلمي الوحيد الذي يسير عليه الفلاسفة في تحليل الأفكار والبحث عن مصادرها.

وكان الأيديولوجيون أنصار تلك الجماعة الفلسفية التي أسسها الفيلسوف المادي الفرنسي كوندياك وتأثروا بالتقليد التجريبي ونبذوا الميتافيزيقا وارتبطوا بالثورة الفرنسية، ولعب معظمهم دورا الانقلاب الذي حمل نابليون إلى السلطة. وقد رفضوا الفكر الميتافيزيقي الذي كانت الطبقة الحاكمة المحافظة تبرر به وجودها وتربعها على السلطة ورأوا من ناحية أخرى أن دراسة الأفكار يجب أن تتم على أسس نفسية وأنثروبولوجية وليس على أساس منطلقات ميتافيزيقية. وظهرت كلمة أيديولوجيين للمرة الأولى حينما أراد نابليون أن يحقر هؤلاء الفلاسفة الذين عارضوا أطماعه الاستعمارية وكان يعني بذلك أن أفكارهم واهمة وغير واقعية بالنسبة لمجريات الصراع السياسي، ومنذ ذلك الحين أصبحت الكلمة ذات معنى سلبي، تطلق على من تصطبغ فلسفته بصبغة مذهبية تنأى بها عن الحقيقة. وقد

حذا ماركس حدو نابليون في استخدام المصطلح، ثم عاد المصطلح ليحمل معنى إيجابيا عند لينين، وأولى المفكر الماركسي أنطونيو جرامشي الأيديولوجيا اهتماما خاصا حتى سمي "منظر البنية الفوقية". وقد اكتشف السياسيون في الأيديولوجيا سلاحا جديدا فعلا لقهر الخصوم فاستخدموه بكفاءة ودهاء، ومع تحول الشيوعية من مجرد فكرة إلى بنى سياسية تحول "عصر الأيديولوجيا" إلى "عصر التحليل" وهو الوصف الذي أطلقه مورتون وايت على القرن العشرين. فظهرت الحاجة إلى التحول عن المنهج الأيديولوجي نحو منهج جديد من خلال علم اجتماع المعرفة وهو منهج يقوم على تحليل المذاهب الفكرية كلها، ولم تكذب تبلور ملامح البحث الحديث في تاريخ الأفكار في منتصف القرن العشرين حتى هبت رياح "البنائية" التي حاولت تقليص النزوع التاريخي بشكل عام بمراجعة التفسير التاريخي مراجعة جذرية ومحاولة القضاء على ادعائه احتكار القدرة على تفسير الظواهر البشرية، وظهرت نتيجة ذلك مدرسة تاريخية جديدة تركز جهدها على كشف المعالم العامة للحضارات التي تمتص في داخلها الأحداث وتصبغها بصبغتها الخاصة بدلا من أن تتشكل بالأحداث وتسير في تيارها، وهو ما عارضه مؤرخون عديدون أبرزهم فرانكلين ل. باومر.